توظيف التراث الحضاري في إدارة الدولة الحديثة في العراق

أ.م.د. حيدر فرحان حسين الصبيحاوي
أ.م.د. سعد سلمان فهد الشويلي

عند البحث عن كلمة " تراث " في القرآن الكريم نجدها قد وردت بعدة مواضع وتحت لفظة " ورث " ففي سورة النساء (.... فأن لم يكن له ولد وورثه أبواه ...)[١] . وجاءت ايضا بلفظة " ورث " في قوله تعالى في سورة الأعراف (فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب ...)[٢] وجاءت بذات اللفظة في سورة الشعراء كما في قوله تعالى (وأجعلني من ورثة جنة النعيم) [٣] ووردت بذات اللفظة في سورة النمل كما في قوله تع .الى : (وورث سليمان داود ....)[٤] كما جاءت في سورة مريم في قوله تعالى (يرثني ويرث من آل يعقوب وأجعله رب رضيا)[٥].

وفي التفسير فأن المراد في كلمة " ورث " هو ما يتركه الآباء للأبناء، أو ما يتركه الجيل السابق للاحق من مال وعلم وملك. ويتجلى معنى الكلمة في الآيات الكريمات بأنها تعني " التراث " بقوله تعالى (وورث سليمان داود)، وداود من نسل يعقوب بن أسحاق بن إبراهيم، فقال بعض المفسرين: أن المراد في هذه الآية أن سليمان ورث العلم فقط عن أبيه، والصحيح أن الآية المباركة تعني وراثة الملك[٦].

ووردت في معاجم اللغة العربية تحت كلمة " ورث " أيضاً ويذكر صاحب كتاب العين بأن: ورث: (الإيراث: الإبقاء للشيء، ويورث أي يبقى ميراثاً. والتراث: تاؤه واو، ولا يجمع كما يجمع الميراث. وتقول

---

[١] – سورة النساء، آية 11 .
[٢] – سورة الأعراف، آية 169 .
[٣] – سورة الشعراء، آية 85 .
[٤] – سورة النمل، آية 16 .
[٥] – سورة مريم، آية 6 .
[٦] – مغنية، محمد جواد، التفسير الكاشف، ط 4، بيروت، 2009، مج6، ج 19، ص 11 .

فلان في أرث مجد وتقول: أنما هو مالي من كسبي وإرث آبائي) [٧]. وفي القاموس المحيط للفيروز آبادي جاءت تحت كلمة " أرث " (وتعني الميراث والأصل والأمر القديم توارثه الآخر عن الأول)[٨].

ولا يختلف معنى كلمة الحضارة عن التراث، فتعرف الحضارة بأنها مجموعة المنجزات المادية والثقافية التي انجزها ابناء شعب من الشعوب عبر التاريخ، ومن الجدير بالملاحظة ان التفسيرات الجديدة لحركة التاريخ لم تهمل أي عامل من العوامل التي تسهم في ارتقاء المجتمع كالعامل السياسي والاقتصادي والاجتماعي والديني والثقافي والفني والأدبي[٩].

وللتراث الحضاري أهمية في حياة الشعوب كونه يمثل جذور الإنسان وانتماءاته وصلة الأجيال الإنسانية بماضيها والأساس الذي يمثل هوية وروح الأمة[١٠].

لقد حث القرآن الكريم المسلمين بالاطلاع ومعرفة اخبار الماضين ومدى إفادة الناس منها وتسخيرها لصالح حاضر الإنسان ومستقبله، فضلاً عن الهدف الأساس وهم مطالعة تاريخ الماضين وآثار الفكر البشري بحثاً عن الحق وتقديم خلاصات التجارب البشرية عبراً يسير على هداها أولي الألباب، فقد ورد في سورة يونس(فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خالفك آية وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون) [١١]، وفي سورة يوسف (نحن نقص عليك أحسن القصص بما اوحينا اليك هذا القرآن وإن كنت من قبله من الغافلين)[١٢].

ولعل أبن خلدون قد أجاد في اعطاء أهمية معرفة تراث وتاريخ الماضين بقوله (اعلم أن فن التاريخ فن غزير المذهب جم الفوائد شريف الغاية إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم والأنبياء في سيرهم، والملوك في دولهم وسياساتهم)[١٣].

لذا فالتراث الحضاري يمكن ان يكون الرافد الكبير الذي نستقي منه المعارف والدروس والخبرات في شتى الميادين وتسخيرها في بناء دولة عصرية حديثة متطورة وناجحة.

---

[٧] – الفراهيدي، الخليل بن أحمد، كتاب العين، ط 2، بيروت، 2005، ص 1044 .

[٨] – الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب ، القاموس المحيط ، إعداد وتقديم: محمد عبد الرحمن المرعشلي ، ط 2، بيروت، 2003، ص 164.

[٩] – الدليمي، حامد حمزة حمد، فلسفة التاريخ والحضارة، بغداد، 2004، ص206.

[١٠] – الجابري ، مظفر علي ، " استعمال الأرض الصناعي في الجزء الموروث من المدينة العربية التقليدية " ، بحث منشور عن مركز احياء التراث العلمي العربي، بغداد، 1986، ص 2 .

[١١] – سورة يونس، آية 92.

[١٢] – سورة يوسف، آية3.

[١٣] – أبن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد الحضرمي، مقدمة أبن خلدون، ط1، بيروت، 1987، ص 9

التوظيف السياسي قدمت الدراسات الآثارية والتاريخية الحديثة مجموعة من الأدلة الأقدم عن تنظيمات تشبه المؤسسات الديمقراطية في كثير من مناطق الشرق الأدنى القديم، فضلاً عن أدلة أخرى تظهر تكريساً وتثميناً لقضايا الحرية وحقوق الإنسان مورست في الحضارات القديمة.

ولعل أقدم آلية ظهرت للحكم السياسي الديمقراطي من خلال إقامة " مجلس " أو " جمعية " في دويلات المدن في القسم الجنوبي من بلاد الرافدين، عرف هذا المجلس عند السومريين تحت أسم ukkin وترجمه الأكديون فيما بعد تحت أسم puhrum الذي جاء بمعنى الفعل " ليجتمع معاً " ويشير هذا المصطلح إلى مؤسسة أو تجمع غير رسمي لمجموعة من الناس [١٤]. وكان ذلك ضمن الفترة الزمنية الممتدة من (2850– 2400ق.م) التي تميزت بظهور أولى السلالات السومرية التي شكلت أنظمة سياسية عرفت بعصور فجر السلالات أو دويلات المدن، وأشهر ملوكها كلكامش في حدود (2700 ق.م).

ويؤكد العلامة طه باقر أن نظام الحكم في العراق القديم قد بدأ بهيأة ديمقراطية قبل فجر التاريخ، عندما نشأت أولى الممالك في بداية فجر السلالات أو العهد الشبيه بالكتابي " أي النصف الثاني من طور الوركاء (3800– 3200 ق. م)، وعهد جمدة نصر (3200– 3000 ق.م) إذ كشفت التنقيبات الأثرية وجود مجالس عامة كانت تشارك في صنع قرار السلطة الحاكمة[١٥] وتتكون تلك المجالس من:–

1 ـ مجلس الشيوخ (مجلس الأعيان).

2 ـ مجلس المحاربين (مجلس النواب).

ومما يؤكد وجود هكذا مجالس ما جاء في بعض سطور ملحمة كلكامش الشهيرة والتي تروي " قصة خلود كلكامش " وأنه عندما عزم على مقاتلة العفريت(خمبابا) حارس غابة الأرز المسحورة أستدعى مجلس شيوخ الوركاء لإبلاغهم عن مغامرته تلك واستحصال موافقتهم، وكيف أن المجلس أستغرق نقاشاً طويلاً مع كلكامش حتى أستطاع من أقناعهم والحصول على موافقتهم. وكذلك تروي الأسطورة أن كلكامش عندما ترك مدينة الوركاء وذهابه لمحاربة " خمبابا " أعطى سلطة المدينة بيد مجلس الشيوخ لإدارتها[١٦].

كما نمتلك إشارات جيدة من نصوص أدبية من عصر سلالة أور الثالثة (2112– 2004 ق. م) تبين أن ملوك هذه السلالة اعتمدوا على موافقة المجلس في اتخاذ القرارات.

---

[١٤] – الطلبي، جمعة حريز، " الديمقراطية والحرية في حضارات الشرق الأدنى القديم " ، مجلة الأستاذ ، كلية التربية ، جامعة بغداد، 2008، ع67، ص636.

[١٥] – باقر، طه، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، ط 2، بغداد ، 1955، ص 31 .

[١٦] - باقر، طه، ملحمة كلكامش ، بغداد ، 1975، ص 78.

في هذا السياق لابد من الإشارة إلى مسألة مشاركة المرأة في مثل هذه المجالس إذ غالباً ما يترك هذا الأمر من قبل الباحثين كلياً ويكتفون بالافتراض السهل وهو أنهن لم يشاركن في هذا التجمع، ليس فيما ذكرناه أعلاه أمثلة ما يشير إلى مشاركتهن، ولكن ربما يكون هذا ناتجاً من غموض المعلومات بشكل عام، ومع هذا فلدينا إشارات في بعض نصوص الفأل من العصر البابلي تذكر أن " النساء سوف يكشفن عن أعمال المجلس " وربما يشير هذا إلى أنهن قد حضرن المناقشات[١٧].

يبدو أنها كانت مجالس سياسية وإدارية تهتم بشؤون الدولة، بدليل أن المجلس يعقد لمناقشة أمراً ما، أو عندما يستدعيه الملك للاجتماع للتباحث – كما مر بنا – في موضوع ملحمة كلكامش على سبيل المثال، وكان عملها استشارياً بحتاً في القضايا السياسية والإدارية.

عندما ننتقل للبحث حول النظام السياسي الإسلامي، وعلى الرغم من أن الرسول الكريم صل الله عليه وآله عند تأسيس دولته الفتية كان الوضع السياسي العالمي محكوم من دولتين عظميين هما الفرس والروم اضافة الى اليهود الذين كانوا عملاء للفرس والروم [١٨] الا ان ذلك لم يمنع من بناء نظام سياسي متكامل اتصف بأهداف سامية:

1. إعداد الأرضية المناسبة لتكامل الإنسان في بعديه المادي والمعنوي.
2. إرساء قواعد العدالة الاجتماعية لأن هذا هو الهدف الرئيس لبعثة الأنبياء وإنزال الكتب السماوية.
3. التربية والتعليم العقلي لتقوية الجانب المعنوي النظري والعملي في الإنسان
4. توفير المتطلبات الاجتماعية الضرورية من الأمن والرفاه الاجتماعي من اجل تكامل الإنسان في أجواء هادئة ومستقرة.
5. استقلال المجتمع الإسلامي ونفي كل اشكال التبعية السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية مع الأنظمة المستكبرة والمتغطرسة[١٩].

وتشهد سيرة النبي الأكرم صل الله عليه وآله وسلم باتخاذه مبدأ الشورى كطريق لإشراك المسلمين في قرارات الدولة، إن لم يكن في ذلك توجيه ألهي صريح واجب الطاعة والالتزام به والأمثلة في ذلك كثيرة ومنها على سبيل المثال لا الحصر القرار الذي أتخذه الرسول بحفر الخندق حول المدينة المنورة أثناء حروب

---

[١٧] - الطلبي، المصدر السابق، ص 639.

[١٨] – الكوراني، علي، السيرة النبوية برواية أهل البيت، بيروت، 2009، ج1، ص573.

[١٩] – المصري، أيمن، معالم النظام السياسي الفلسفي – الإسلامي– العلماني، ط1، منشورات المحبين، 2012، ص104.

المسلمين مع المشركين استنادا إلى رأي الصحابي الجليل سلمان المحمدي الذي أشار على الرسول الكريم حفر الخندق حول المدينة حتى لا تستطيع جموع المشركين من دخول المدينة المنورة [٢٠].

والواقع أن الرسول الكريم والذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، ليس بعاجز على اتخاذ القرارات الصحيحة لكنه صلوات الله عليه وآله وسلم كان يعمد إلى هكذا إجراءات لكي يسيروا قادة الأمة من بعده على سيرته ويقتدوا به وفي ذلك يقول الإمام الحسن بن علي عليه السلام بصدد ذلك (قد علم الله أنه – أي الرسول – ما به حاجة، ولكنه أراد أن يستن به من بعده) [٢١]، ولكي لا ينفرد المسؤول بقراراته ويتجاهل رأي الغالبية من الشعب، وفي ذلك أمرين مهمين أولهما هو تقديم الاستشارة والنصح والرأي السديد للحاكم ليتمكن من ضمان حقوق جميع أبناء الدولة، وثانيهما هو أعلام الحاكم بأن مصيره الزوال أن سار بالحكم حسب ما تمليه عليه نفسه ورغباته ورغبات بطانته. وفي الأمرين مصلحة للحاكم والمحكوم معاً.

كما أقر الإسلام مبدأ الانتخابات " البيعة " من قبل الشعب في اختيار الحاكم الذي يرغبون لتوليه أمور بلادهم، وهذه أعلى درجات الحرية والديمقراطية التي شرعها الإسلام للبشرية جميعاً، وليس ببعيد علينا كيفية تنصيب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام خليفة (رئيس) للأمة الإسلامية والتي تمت بكل حرية وديمقراطية، حيث أجتمع من بقي من الصحابة من المهاجرين والأنصار وفيهم طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام فأتوه وقالوا له: (أنه لابد للناس من رئيس وأنّا لا نعلم أحداً أحق به منك . فبايعه الناس خليفة وأميراً للمؤمنين) [٢٢] وتخلف عن البيعة عدد من المنافقين وقد أراد بعض الصحابة إلزامهم بالبيعة، وأرادوا استحصال موافقة أمير المؤمنين في ذلك، لكنه لم يقابل من طرف الإمام إلا بالرفض الشديد ([٢٣]) ولم يسلط أمير المؤمنين أو يوصي بالخلافة لأحد أبنائه على المسلمين وكانا سيدا شباب أهل الجنة، وحينما سؤل أمير المؤمنين قبل استشهاده برأيه بتولية الإمام الحسن خليفة للمسلمين من بعده ترك الخيار للناس. وكانت خلافة الإمام الحسن بن علي عليه السلام أيضاً عن طريق الانتخاب من جمهور المسلمين([٢٤]) .

ومن خلال ذلك فأن الإسلام جعل الباب مفتوحاً لكل إنسان يرغب بأن يرشح نفسه لإدارة شؤون البلاد دون أن يجعل محددات طبقية أو يعتمد لون البشرة لتقييم الآخرين، ولكن الإسلام وضع شرطين رئيسيين

---

[٢٠] – معروف ، ناجي، أصالة الحضارة العربية، ط 2، بغداد، 1969، ص 197.

[٢١] – الجابري، محمد عابد، الديمقراطية وحقوق الإنسان، ط 1، بيروت، 2004، ص 220.

[٢٢] – اليوزبكي، توفيق سلطان، دراسات في النظم العربية الإسلامية، ط 3، بغداد، 1988، ص 55.

[٢٣]- الشيرازي، صادق الحسيني، السياسة من واقع الإسلام، ط 5، كربلاء المقدسة، 2005، ص123.

[٢٤] – مغنية، محمد جواد، الشيعة والحاكمون، ط 7، بيروت، 1992، ص61.

للشخص الذي يرغب بالتصدي للمسؤولية أولهما أجماع الناس عليه – وهي الانتخابات –، وثانيهما أن يكون كامل الأهلية ويتمتع بالورع والتقوى والسيرة الحسنة والعلم والكفاءة والقدرة على القيادة والإسلام بحد ذاته دين حضارة ومدنية ويزخر بعدد كبير من الأنظمة والأوامر والنواهي والأعمال والأمثلة التي تؤيد ما ذهبنا إليه([٢٥]).

وعند دراستنا لسياسة أمير المؤمنين من خلال نهج البلاغة، نجد إن أحدى المسائل التي تحتل أهمية بارزة فيه، هي مسألة القيادة والحكومة. إذ تناولت تلك الخطب مواضيع شتى في السياسة. منها واجبات ومسؤوليات الدولة الإسلامية، الاقتصاد في الأنفاق من قبل الدولة والمسؤولين، ضرورة القيادة والحكومة، واجبات القائد، صفات وكفاءات القائد، الحكومة المثالية، القائد والإيثار، الأحزاب والمعارضون للحكومة، وغيرها كثير([٢٦]).

ومن أحدى خطبه التي يحدد بها واجبات ومسؤوليات قيادة الدولة الإسلامية فيقول : " .... فلا تنافسوا في عز الدنيا وفخرها، ولا تعجبوا بزينتها ونعيمها، ولا تجزعوا من ضرائها وبؤسها، فإن عزها وفخرها إلى انقطاع، وإن زينتها ونعيمها إلى زوال، وضراءها وبؤسها إلى نفاد، وكل مدة فيها إلى انتهاء وكل حي فيها إلى فناء ...."([٢٧])، وفي ذلك وصف دقيق للصفات التي يجب أن يتحلى بها القائد في قيادته للأمة، فالإمام يرى إن المال والحكم والفرش واللباس والقصور والأكل والشرب ... كلها لا شيء إلا بمقدار الحاجة الضرورية، ولعل أعمق مثال في منظار أمير المؤمنين ما أفصح عنه في أحدى كلماته عندما قال: " والله لدنياكم هذه أهون في عيني من عراق خنزير في يد مجذوم "([٢٨]).

لذلك نراه دائماً يحذر غير المؤهلين والنفعيين والذين يستغلون السلطة لأغراضهم الخاصة من التصدي للحكم وهو ليس بأهل لذلك وفي هذا الصدد يقول " أن أبغض الخلائق إلى الله رجلان : رجل وكله الله إلى نفسه – أي ترك نفسه لهواه – فهو جائر عن قصد السبيل ... فهو فتنة لمن أفتتن به، ومضل لمن اقتدى به

---

[٢٥] – الصبيحاوي، حيدر فرحان حسين، حقوق الإنسان في الفكر الإسلامي، بغداد، 2009، ص84.

[٢٦] – زنجاني، عباس علي عميد ، " أسس الفكر السياسي في القرآن والسنة " ، مدخل إلى الفكر السياسي في الإسلام ، ط 1، ايران، 2001، ص 114 .

[٢٧] عبده، محمد، نهج البلاغة، ط 1، بيروت، 2007، ص 167 ، الخطبة 99 .

[٢٨] – الشيرازي، صادق الحسيني، المصدر السابق، ص 78 .

في حياته وبعد وفاته، حمال خطايا غيره. ورجل قمش جهلاً، موضع في جهال الأمة – أي أنه يستغل افتتان الناس بجهلهم وعماهم – قد سماه الناس عالما وليس به "([٢٩]).

هذه الأخلاق والفلسفة السياسية التي تربى عليها الإمام كانت واقع عملي في تدبير شؤون الدولة وتعامله مع رعيته سواء المساندين لحكومته أو المعارضين له كونه يعتبر القائد والقيادة هي تكليف شرعي.

التوظيف القانوني

سلطة النظام السياسي كان يدعمه سلطة النظام القانوني الذي يثبت دعائم إدارة البلاد، فكانت هناك إصلاحات اجتماعية بين الحين والآخر قبل ظهور القوانين يصدرها الملك، ولعل أقدم إصلاح اجتماعي واقتصادي معروف حتى يومنا هذا هو إصلاح حاكم مدينة لكش " أوروكجينا" ويعود تاريخه إلى سنة (2355 ق.م)، إذ أشارت الوثائق التاريخية إلى أن هذا الحاكم كان قد قضى على كل المساوئ التي كان يتذمر منها سكان المدينة وبالأخص تذمرهم من الضرائب التي كانت مفروضة عليهم ، وأنه – أي أوروكجينا – أزال المظالم التي كانت تقع على الفقراء من جانب الأغنياء وكذلك الاستغلال بحيث ذكر هذا الإصلاح أن بيت الفقير قد صار بجوار بيت الثري الكبير وخاصة بعد أن منح الملك الحرية التامة لسكان سلالته علماً أن هذه الكلمة " الحرية " ظهرت ولأول مرة في التاريخ البشري في هذه الوثيقة العراقية القديمة[٣٠].

من الملاحظات المهمة ونحن نخوض في معرفة القوانين والشرائع للحضارات القديمة، أن المصريين القدماء لم يسنوا قانون ليسترشد به المواطن في تعاملاته اليومية، وهذا الأمر لا يعني وجود خلل في الفكر الحضاري للمصريين القدماء وإنما الإشكالية هنا هو أن فراعنة " ملوك " مصر القديمة جعلوا من أنفسهم ممثلين للآلهة على الأرض. وهذا الأمر في غاية الأهمية ذلك لأن الملك عندما يؤله نفسه أنما يجعلها فوق الجميع ويسموا بذاته عن أي خطأ أو زلة، فالفرعون كان يعتبر نفسه إلهاً مطلق تصدر عن إرادته ومشيئته يغيرها متى ما أراد ذلك وبالشكل الذي يرتئيه هو – أي الفرعون –، فليس هنالك شريعة ثابتة يقضي بين الناس بموجبها كما هو الحال في العراق القديم[٣١].

وبناءاً للمعطيات الآثارية فأن حضارة بلاد الرافدين أول الحضارات التي نظمت وشرعت القوانين قبل غيرهم من شعوب العالم بآلاف السنين، خاصة بعد أن عرف العراقيون القدماء الكتابة ودونوا بواسطتها أخبارهم ومعاملاتهم الاقتصادية والقضائية.

---

[٢٩] – الصبيحاوي، حيدر فرحان حسين، حقوق الإنسان في الفكر الإسلامي، بغداد، 2009، ص 84 .

[٣٠] - الطلبي، المصدر السابق، ص639.

[٣١] - العطار، أحمد هاشم، ملامح حقوق الإنسان في شرائع العراق القديم، بغداد، 2004، ص 14

تعد شريعة " أور نمو " أقدم وأول شريعة معروفة لدى الإنسان والتي صدرت خلال حكم الملك " أور نمو " مؤسس سلالة أور الثالثة (2112– 2004 ق . م)، وعثر عليها في مدينة أور جنوب العراق، احتوت هذه الشريعة أو القانون على إحدى وثلاثون مادة.

عالج هذا القانون جملة من القضايا الاقتصادية والاجتماعية، وبين العقوبات التي يتعرض لها المخالف لبنود القانون والتي توزعت بين الإعدام والغرامة المالية.

في بداية العهد البابلي القديم ظهر القانون الثاني في العراق والذي يسمى قانون " لبت عشتار " وعثر عليه في مدينة نُفر جنوب العراق، ولبت عشتار هو خامس ملوك سلالة " أيسن " (2017 – 1794 ق . م) واحتوى القانون على سبع وثلاثون مادة قانونية، ومما يلفت النظر في مقدمة شريعة لبت عشتار أنها لا تختلف في مضمونها وتركيبها عن شريعة أور نمو، وكلاهما تؤكدان على أن الغرض من تشريعهما هو جلب الخير والرفاهية لبلاد سومر وأكد وتحرير السكان من الحيف الذي وقع عليهم خلال الفترة التي سبقت ظهورهما.

وقبل ظهور شريعة حمورابي بحدود نصف قرن من الزمان أو أكثر ظهر قانون ثالث في بلاد الرافدين وهو قانون " أشنونا " عثر عليه في موقع تل حرمل ببغداد ، احتوت على أحدى وستون مادة قانونية، أيضا ناقشت الوضع الاقتصادي والاجتماعي للمجتمع العراقي ووضعت له الحلول القانونية لضمان حقوق المواطن حسب رؤيا المشرع آنذاك.

تعتبر شريعة أو قانون حمورابي (1792 – 1750 ق.م) رابع قانون يظهر على التوالي في العراق القديم، وكما يبدو من مواده انه عبارة عن جمع منقح لمواد الشرائع التي سبقتها، إذ أن حمورابي قد حذف من مواد الشرائع السابقة ما كان لا يتفق وطبيعة العصر الذي يعيش فيه وأضاف إلى شريعته مواد اقتضتها مصلحة الدولة حينها ولا سيما المواد القانونية الصارمة الخاصة بعقوبة الموت ومبدأ القصاص بالمثل [٣٢].

وواقع الحال فأنه يعتبر من القوانين الوضعية المهمة التي تنم عن سعة فكر المشرع العراقي آنذاك كونها ناقشت كافة أوضاع المجتمع العراقي في تلك الفترة، حتى أن بعض فقراته تتماشى مع ما جاء من لوائح حديثة في عصرنا هذا عن حقوق الإنسان، ولعل بعض الدول المتطورة قد اقتبست بعض من مواده ووضعتها في دساتيرها وقوانينها، وكانت القوانين صارمة وعقوباتها عنيفة.

استمرت حواضر الدول المتطورة بنظمها السياسية والقانونية بالظهور حتى ما غابت حضارة ظهرت أخرى بقربها فأصبح العراق بلد الحواضر والعواصم عبر التاريخ وصولاً للحضارة الإسلامية، ولعلنا هنا لسنا بحاجة

---

[٣٢] - رشيد ، فوزي، الشرائع العراقية القديمة ، ط2، بغداد، 1979، ص 28 وما تلاها .

الى الحديث عن القانون في ظل الإسلام كون قانونه وشريعته ألهية وهو القرآن الكريم الذي لو أهتدى به من تسلموا الحكم في الإسلام لكان العرب والمسلمين من أوائل الأمم المتحضرة في تاريخنا الحديث.

التوظيف الاجتماعي

منذ النشأة الأولى للمجتمعات البشرية كان التنوع في العرق والقومية، وكان الاختلاف في المزاج الديني والسياسي والاجتماعي، لذا فقد كان هناك الصراع، صراع له علاقة بالقوة الجسدية وعلى القوت وإشباع الغريزة، أو حروب على الأفكار والعقائد، وكان المصلحون بشكل دائم يحاولون إيجاد السبل الآيلة الى حل هذه المعضلات فيما خص التغلب البشري وكيفيات الانسجام والتآلف الاجتماعي([٣٣]).

التنوع الجنسي والعرقي والديني والمذهبي والسياسي حاضراً في تاريخ العراق بقوة في المشهد العراقي ومنذ قرون طويلة، فعلى مر التاريخ العراقي القديم كان هناك أقوام عدة تعايشت في العراق كالسومريين والذي لازال الجدال في نسبة أصولهم مجرد فرضيات باحثين لم تستند الى دليل مادي حول حقيقة أصولهم والبابليين والآشوريين والنازحين من الجزيرة العربية وهم الساميون والذين كانوا اقوام عربية هاجرت من مهدها الأصلي في جزيرة العرب وغيرهم([٣٤])، ثم ان الديانة في بلاد وادي الرافدين اتصفت بتعدد الآلهة بين آلهة محلية وأخرى قومية، فمثلاً الإله آنو كان يعبد في الوركاء، بينما عبد الإله أنكي في مدينة أريدو، اضافة الى آلهة قومية انتشرت عبادتهم في جميع أنحاء بلاد الرافدين كالإله أنليل([٣٥]).

رغم الاختلاف، لكن الإنسان كائن اجتماعي ميال الى العيش في مجتمعات موحدة وفي ذلك يقول أبن خلدون في مقدمته (الأولى في أن الاجتماع الإنساني ضروري ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم الإنسان مدني بالطبع أي لابد له من الاجتماع)([٣٦]). وبالتالي فالمجتمع يشير إلى مجموعة من الناس تعيش سوية في شكل منظم وضمن جماعة منظمة تربط فيما بينهما علاقات ثقافية واجتماعية ويشاركون اهتمامات مشتركة تعمل

[٣٣] – صالح، محسن، الفلسفة الاجتماعية وأصل السياسة، ط1، بيروت، 2008، ص13.

[٣٤] – باقر، طه، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ط1، بغداد، 2009، ج1، ص83.

[٣٥] – رشيد، فوزي، " المعتقدات الدينية "، حضارة العراق، بغداد، 1985، ج1، ص145.

[٣٦] – أبن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت:808هـ/1407م)، مقدمة أبن خلدون، ط1، بيروت، 1978، ص41.

على تطوير ثقافة ووعي مشترك يطبع المجتمع وافراده بصفات مشتركة تشكل شخصية هذا المجتمع وهويته وهو ما يعبر عنه في المجتمعات بالتعايش السلمي([٣٧]).

لذلك وضع الله سبحانه وتعالى معايير ثابتة للتعامل بإيجابية مع تلك الاختلافات والتنوع وهذا ما ندركه ونتحسسه في آي القرآن الكريم (يا أيها الناس أنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم أن الله عليم خبير)([٣٨]) فنداؤه تعالى بيا أيها الناس مع قوله: من ذكر وأنثى...وأتقاكم دليل قاطع وواضح على أن دعوة القرآن إنسانية عالمية تعتبر الإنسان أخاً للإنسان مهما كانت عقيدته وقوميته وجنسيته([٣٩]).

وفي الحديث الشريف قوله: (أن الله بعثني بالحنيفية السهلة، ولم يبعثني بالرهبانية المبتدعة، سنتي الصلاة والنوم، والإفطار والصوم، فمن رغب عن سنتي فليس مني)([٤٠]).

عالج الإسلام هذا التنوع بحفظ حقوق الإنسان في المعتقد الذي يؤمن به، وأختار الإسلام طريق " وجادلهم بالتي هي أحسن " أسلوباً لهداية الناس دون إجبار أو تعصب أو غلو، ودون أن يبيح للإنسان أن ينصب نفسه حاكماً شرعياً ويقوم بإصدار فتاوى القتل والتهميش والتدمير والتهجير لكل من يخالفه بالرأي، وليس للإنسان سوى النصح وتبيان الحقائق دون تزييف كي يوضح الطريق أو العقيدة الصحيحة من الخاطئة وهذا ما كلف الله به بني البشر ويظهر ذلك جلياً في قوله تعالى (وأصبر على ما يقولون وأهجرهم هجراً جميلاً)([٤١]).

ولعل الوثيقة المدنية التي أصدرها وانتهجها الرسول الكريم صل الله عليه وآله وسلم في المدينة المنورة أصدق مثال لضمان حقوق المواطنة وضمان حرياته بغض النظر عن عقيدته أو دينه أو قوميته أو جنسه حيث ورد في المادة 25 من الوثيقة (أن لكل واحد من أهل الوثيقة دينه وكتابه، فللمسلمين كتابهم ودينهم، ولليهود دينهم وأحكامهم وحفظ حقوق مواليهم)([٤٢]).

---

[٣٧] – الجادر، سرور زكي، "التوظيف الأمريكي لمنظمات المجتمع المدني"، مجلة حمورابي، مركز حمورابي للبحوث والدراسات الاستراتيجية، بغداد، بغداد، 2012، ع3، ص91.

[٣٨] – سورة الحجرات، آية 13.

[٣٩] – مغنية، محمد جواد، التفسير الكاشف، ط4، دار الأنوار، بيروت، 2009، مج7، ص115.

[٤٠] – الدينوري، أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (ت:276هـ/889م)، عيون الأخبار، القاهرة، 1963، مج1، ص327.

[٤١] – سورة المزمل، آية 10.

[٤٢]- طلس، محمد أسعد، تاريخ الأمة العربية " عصر الانطلاق " ، ط1، بيروت، 1957، ج1، ص 85 .

ونستخلص من ذلك الدروس والعبر في احترام حق الآخرين التي يؤكد عليها الإسلام هو الطريق الوحيد للتعايش السلمي بين طوائف وأعراق متنوعة ولهذا ان تكامل الإنسان وتطور المجتمع لا يبنى دون ثنائية كلام وسماع([٤٣]).

وهكذا فإن الإسلام ركز على المواطنة بوصفها العمود الفقري للنظم السياسية، والتي تتبناها النظم السياسية المتطورة المعاصرة والتي جاءت عبر سلسلة من الالتزامات كتكافؤ الفرص في المجالات كافة، والمساواة في الحقوق والواجبات، وضمان التوازن المطلوب بين الحريات الفردية والعامة.

ومما هو معروف بين المختصين بأن المواطنة مفهوم حديث ترتكز عليه جملة من الأبعاد السياسية والاقتصادية والقانونية والاجتماعية والثقافية والذي تعاطى معه الفكر الإسلامي لما يمتلكه من ذخيرة فكرية ومنظومة عقائدية، واعتبره من شواغل الفكر السياسي لبناء دولة عصرية ومتقدمة تبنى على حقوق الإنسان وواجبات المواطنة([٤٤]).

[٤٣] – السواد، عمار، "الحوار سر الحياة"، نحو مجتمع الحوار واللا عنف، بغداد، 2016، ص16.

[٤٤] – محسن، جواد كاظم، " المواطنة: الحقوق والواجبات من منظور إسلامي"، المواطنة والهوية العراقية عصف احتلال ومسارات تحكم، المؤتمر الثالث لمركز حمورابي للبحوث والدراسات الاستراتيجية، بغداد، ط1، بيروت، 2011، ص 139.